رِسَالَةُ ابْنِ الْقَيِّمِ إِلَى أَحَدِ إِخْوَانِهِ

تَأْلِيفُ الْإِمَامِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهُ الْمَسْؤُولُ الْمَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى الْأَخِ [عَلَاءِ الدِّينِ (١)] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَنْفَعَ (٢) بِهِ، وَيَجْعَلَهُ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كَانَ. فَإِنَّ بَرَكَةَ الرَّجُلِ تَعْلِيمُهُ لِلْخَيْرِ حَيْثُ حَلَّ، وَنُصْحُهُ لِكُلِّ مَنِ اجْتَمَعَ بِهِ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى- إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ [عَلَيْهِ السَّلَامُ]: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مَرْيَمَ: ٣١] أَيْ مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ، دَاعِيًا إِلَى أَللهِ، مُذَكِّرًا بِهِ، مُرَغِّبًا فِي طَاعَتِهِ، فَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الرَّجُلِ، وَمَنْ خَلَا مِنْ هَذَا فَقَدْ خَلَا مِنَ الْبَرَكَةِ، وَمُحِقَتْ بَرَكَةُ لِقَائِهِ وَالِاجْتِمَاعِ بِهِ، بَلْ تُمْحَقُ بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ، فَإِنَّهُ يُضَيِّعُ الْوَقْتَ فِي الْمَاجَرَيَاتِ (٣)، وَيُفْسِدُ الْقَلْبَ. وَكُلُّ آفَةٍ (٤)

تَدْخُلُ عَلَى الْعَبْدِ، فَسَبَبُهَا ضَيَاعُ [الْوَقْتِ] وَفَسَادُ الْقَلْبِ، وَتَعُودُ بِضَيَاعِ [حَظِّهِ] مِنَ اللهِ، وَنُقْصَانِ دَرَجَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ؛ وَلِهَذَا وَصَّى (٥) بَعْضُ الشُّيُوخِ (٨) فَقَالَ: احْذَرُوا مُخَالَطَةَ مَنْ تُضَيِّعُ مُخَالَطَتُهُ الْوَقْتَ، وَتُفْسِدُ الْقَلْبَ، فَإِنَّهُ مَتَى ضَاعَ الْوَقْتُ وَفَسَدَ الْقَلْبُ انْفَرَطَتْ عَلَى الْعَبْدِ أُمُورُهُ كُلُّهَا، وَكَانَ مِمَّنْ قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الْكَهْفِ: ٢٨].

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ هَذَا الْخَلْقِ، وَجَدَهُمْ كُلَّهُمْ -إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ- مِمَّنْ غَفَلَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ -تَعَالَى -، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَصَارَتْ أُمُورُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ ﴿فُرُطًا﴾ أَيْ: فَرَّطُوا فِيمَا يَنْفَعُهُمْ وَيَعُودُ بِصَلَاحِهِمْ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ يَعُودُ بِضَرَرِهِمْ (٩) عَاجِلًا وَآجِلًا (١٠).

[وَهَؤُلَاءِ] قَدْ أَمَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- رَسُولَهُ أَلَّا يُطِيعَهُمْ، فَطَاعَةُ الرَّسُولِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِعَدَمِ طَاعَةِ هَؤُلَاءِ (١١)، [فَإِنَّهُمْ] إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى مَا يُشَاكِلُهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ (١٢).

وَالْغَفْلَةُ عَنِ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ مَتَى تَزَوَّجَتْ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، [تَوَلَّدَ مَا] بَيْنَهُمَا كُلُّ شَرٍّ (١٣). وَكَثِيرًا مَا يَقْتَرِنُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَلَا

يُفَارِقُهُ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ فَسَادَ أَحْوَالِ الْعَالَمِ عُمُومًا وَخُصُوصًا، وَجَدَهُ نَاشِئًا عَنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، فَالْغَفْلَةُ تَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ تَصَوُّرِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَتِهِ وَالْعِلْمِ بِهِ (١٤) فَيَكُونُ مِنَ [الضَّالِّينَ]. وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّهُ عَنْ قَصْدِ (١٥) الْحَقِّ وَإِرَادَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ (١٦)، فَيَكُونُ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ فَهُمُ الَّذِينَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ عِلْمًا، وَبِالِانْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِيثَارِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ عَمَلًا، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَمَنْ سِوَاهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْهَلَاكِ. وَلِهَذَا أَمَرَنَا اللهُ -سُبْحَانَهُ- أَنْ نَقُولَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِدَّةَ مَرَّاتٍ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الْفَاتِحَةِ: ٦، ٧].

فَإِنَّ الْعَبْدَ مُضْطَرٌّ كُلَّ الِاضْطِرَارِ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِمَا يَنْفَعُهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُؤْثِرًا مُرِيدًا لِمَا يَنْفَعُهُ (١٧)، مُجْتَنِبًا لِمَا يَضُرُّهُ. فَبِمَجْمُوعِ هَذَيْنِ [يَكُونُ] قَدْ هُدِيَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨). فَإِنْ فَاتَهُ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ سَلَكَ سَبِيلَ الضَّالِّينَ (١٩)، وَإِنْ فَاتَهُ قَصْدُهُ وَاتِّبَاعُهُ سَلَكَ سَبِيلَ (٢٠)

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ. وَبِهَذَا يُعْرَفُ قَدْرُ هَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ، وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَتَوَقُّفُ (٢١) سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَيْهِ.

وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْهِدَايَةِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ، فِي جَمِيعِ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ، فَإِنَّهُ بَيْنَ أُمُورٍ (٢٢) لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا:

أَحَدُهَا أُمُورٌ قَدْ أَتَاهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْهِدَايَةِ جَهْلًا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ الْهِدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ فِيهَا.

أَوْ يَكُونُ عَارِفًا بِالْهِدَايَةِ فِيهَا، فَأَتَاهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا عَمْدًا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا.

أَوْ أُمُورٌ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ الْهِدَايَةِ فِيهَا عِلْمًا وَلَا عَمَلًا، فَفَاتَتْهُ الْهِدَايَةُ إِلَى عِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا، وَإِلَى قَصْدِهَا وَإِرَادَتِهَا وَعَمَلِهَا.

أَوْ أُمُورٌ قَدْ هُدِيَ [إِلَيْهَا] مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى تَمَامِ الْهِدَايَةِ فِيهَا.

أَوْ أُمُورٌ قَدْ هُدِيَ إِلَى أَصْلِهَا دُونَ تَفَاصِيلِهَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةِ التَّفْصِيلِ.

(١) في الأصل (علاهن)، وفي ب (علام الدين)، والمثبت من ج، ود، وانظر الكلام عن هذه الألقاب في قسم الدراسة، ص ٢١.

(٢) في ج (وأن ينفع).

(٣) (الماجرَيات): كلمة مُحدثة، وهي الحوادث والأمور التي جرت أو تجري، مأخوذة من قولهم: جرى ما جرى، ويقال: كانت بينهم مناظرات وماجريات يطول شرحها. (انظر: الهادي إلى لغة العرب، حسن سعيد الكرمي ١/ ٣٢٣).

(٤) في ب (وكلافة) بدل (وكل آفة).

(٥) في ب، وج (أوصى).

(٨) في ج (بعضهم).

(٩) في ج (بما يضرهم).

(١٠) تكلم ابن القيم في ذم الخلطة، وبيَّن الضابط النافع فيها، في مدارج السالكين (١/ ٤٥٤ - ٤٥٦).

(١١) في ج (طاعتهم).

(١٢) في ج: (عن الله والدار الآخرة).

(١٣) في ج: (تولد منهما شر كثير).

(١٤) في ج (وبين معرفة الحق وتصوره) بدل (وبين تصور الحق ومعرفته والعلم به).

(١٥) في ج (اتباع) بدل (قصد).

(١٦) (وإرادته واتباعه) سقطتا من ج.

(١٧) في ج (له) بدل (لما ينفعه).

(١٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٢٠ - ٣٢١).

(١٩) في ج: (فهو من الضالين) بدل (سلك سبيل الضالين).

(٢٠) فى ج (فهو من) بدل (سلك سبيل).

(٢١) في ج (فتوقف).

(٢٢) قال ابن القيم في شفاء العليل (١/ ٢١٥): "قال شيخنا" يعني شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم ذكر أكثر هذه الأمور التي ذكرها هنا، ولم يُفصَّل فيها كما فَصَّل هنا.

أَوْ طَرِيقٌ قَدْ هُدِيَ إِلَيْهَا، وَهُوَ (١) مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةٍ أُخْرَى فِيهَا، فَالْهِدَايَةُ إِلَى الطَّرِيقِ شَيْءٌ وَالْهِدَايَةُ فِي نَفْسِ الطَّرِيقِ شَيْءٌ آخَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَعْرِفُ [أَنَّ] طَرِيقَ الْبَلَدِ (٢) الْفُلَانِيِّ هُوَ طَرِيقُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَسْلُكَهُ، فَإِنَّ سُلُوكَهُ [يَحْتَاجُ] إِلَى هِدَايَةٍ خَاصَّةٍ فِي نَفْسِ السُّلُوكِ، كَالسَّيْرِ فِي وَقْتِ كَذَا دُونَ [وَقْتِ] كَذَا، وَأَخْذِ الْمَاءِ فِي مَفَازَةِ كَذَا مِقْدَارَ كَذَا، وَالنُّزُولِ فِي مَوْضِعِ كَذَا دُونَ كَذَا، فَهَذِهِ هِدَايَةٌ فِي نَفْسِ السَّيْرِ قَدْ يُهْمِلُهَا مَنْ هُوَ عَارِفٌ بِأَنَّ الطَّرِيقَ هِيَ هَذِهِ، فَيَهْلِكُ وَيَنْقَطِعُ عَنِ الْمَقْصُودِ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا ثَمَّ أُمُورٌ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى [أَنْ] يَحْصُلَ (٣) لَهُ فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلُ مَا حَصَلَ (٤) لَهُ فِي الْمَاضِي.

وَأُمُورٌ هُوَ خَالٍ عَنِ اعْتِقَادِ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ (٥) فِيهَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةِ الصَّوَابِ فِيهَا.

وَأُمُورٌ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فِيهَا عَلَى هُدًى وَهُوَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَلَا يَشْعُرُ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى انْتِقَالِهِ عَنْ ذَلِكَ الِاعْتِقَادِ بِهِدَايَةٍ مِنَ اللهِ (٦).

وَأُمُورٌ قَدْ فَعَلَهَا عَلَى وَجْهِ الْهِدَايَةِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَهْدِيَ غَيْرَهُ [إِلَيْهَا] وَيُرْشِدَهُ وَيَنْصَحَهُ، فَإِهْمَالُهُ ذَلِكَ يُفَوِّتُ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ بِحَسَبِهِ كَمَا أَنَّ هِدَايَتَهُ لِلْغَيْرِ (٧) وَتَعْلِيمَهُ وَنُصْحَهُ يَفْتَحُ (٨) لَهُ بَابَ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكُلَّمَا (٩) هَدَى غَيْرَهُ وَعَلَّمَهُ هَدَاهُ اللهُ وَعَلَّمَهُ فَيَصِيرُ (١٠) هَادِيًا مَهْدِيًّا، كَمَا فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ (١١): "اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، سِلْمًا لِأَوْلِيَائِكَ، حَرْبًا لِأَعْدَائِكَ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ (١٢) ".

[وَقَدْ] أَثْنَى اللهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُهْتَدَى بِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَاتِ عِبَادِهِ:

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)} [الْفُرْقَانِ: ٧٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُهْتَدَى (١٣) بِنَا فِي الْخَيْرِ (١٤). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ (١٥): [يُقْتَدَى] بِهُدَانَا (١٧). وَقَالَ مَكْحُولٌ (١٨): أَئِمَّةً فِي [التَّقْوَى]، يَقْتَدِي بِنَا الْمُتَّقُونَ (١٩) (٢٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ (٢١): "اجْعَلْنَا مُؤْتَمِّينَ بِالْمُتَّقِينَ، مُقْتَدِينَ بِهِمْ (٢٢)". وَأَشْكَلَ (٢٣) هَذَا التَّفْسِيرُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ فَهْمِ السَّلَفِ وَعُمْقِ عِلْمِهِمْ، وَقَالَ: يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ مِنْ بَابِ (٢٤) الْمَقْلُوبِ (٢٥)، عَلَى تَقْدِيرِ (٢٦): (وَاجْعَلِ الْمُتَّقِينَ لَنَا أَئِمَّةً)، وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَقْلُوبًا (٢٧) [عَنْ (٢٨)] وَجْهِهِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ فَهْمِ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ (٢٩) إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ حَتَّى يَأْتَمَّ بِالْمُتَّقِينَ، فَنَبَّهَ مُجَاهِدٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَنَالُونَ بِهِ هَذَا الْمَطْلُوبَ، وَهُوَ اقْتِدَاؤُهُمْ (٣٠) بِالسَّلَفِ الْمُتَّقِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَيَجْعَلُهُمُ اللهُ أَئِمَّةً لِلْمُتِقِينَ (٣١) مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْفَهْمِ فِي الْقُرْآنِ وَأَلْطَفِهِ، لَيْسَ مِنْ بَابِ الْقَلْبِ فِي شَيْءٍ. فَمَنِ ائْتَمَّ بِأَهْلِ السُّنَّةِ قَبْلَهُ (٣٢)؛ ائْتَمَّ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ وَمَنْ مَعَهُ (٣٣).

وَوَحَّدَ -سُبْحَانَهُ- لَفْظَ ﴿إِمَامًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً، فَقِيلَ: الْإِمَامُ فِي الْآيَةِ جَمْعُ آمٍّ، نَحْوُ: صَاحِبٍ وَصِحَابٍ، وَهَذَا قَوْلُ (٣٤) الْأَخْفَشِ (٣٥)، وَفِيهِ بُعْدٌ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ [الْمُسْتَعْمَلَةِ] الْمَعْرُوفَةِ حَتَّى يُفَسَّرَ بِهَا كَلَامُ اللهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ (٣٦): الْإِمَامُ هُنَا مَصْدَرٌ، لَا اسْمٌ (٣٧)، يُقَالُ: أَمَّ إِمَامًا، نَحْوُ: صَامَ صِيَامًا، وَقَامَ قِيَامًا، أَيِ: اجْعَلْنَا ذَوِي إِمَامٍ، وَهَذَا (٣٨) أَضْعَفُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ (٣٩): إِنَّمَا قَالَ: ﴿إِمَامًا﴾، وَلَمْ يَقُلْ أَئِمَّةً، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ (٤٠): ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٦]، وَلَمْ يَقُلْ: رَسُولَا (٤١) (٤٢)، وَهُوَ مِنَ الْوَاحِدِ الْمُرَادِ بِهِ الْجَمْعُ (٤٣)، لِقَوْلِ الشَّاعِرِ (٤٤):

يَا عَاذِلَاتِي لَا [تُرِدْنَ (٤٥)] مَلَامَتِي ... إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَيْسَ (٤٦) لِي بِأَمِيرِ (٤٧)

أَيْ: لَيْسَ لِي بِأُمَرَاءَ.

(١) في ب، وج (فهو).

(٢) في ب (البلدة).

(٣) في ب، وج (تحصل).

(٤) في ب، وج (يحصل).

(٥) في ب (عن اعتقاد حقًا وباطلًا).

(٦) (بهداية من الله) ساقطه من ج.

(٧) في ج (الغير) بدل (للغير).

(٨) في ج (تفتح) بدل (يفتح).

(٩) في ب، وج (وكلما) بدل (فكلما).

(١٠) في ج (صار) بدل (فيصير).

(١١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، (٥/ ٤٥٠ - ٤٥١)، باب (٣٠)، (ح ٣٤١٩)، من حديث طويل، أوله: "اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ... ". ورواه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٦٦، ح ١١١٩). وقال ابن حبان بعد أن ساق الحديث "هذا باطل"، (المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ١/ ٢٣١). قال الألباني: "ضعيف الإسناد"، (ضعيف سنن الترمذي ص ٤٤٥، ح ٦٧٨). لكن موضع الشاهد من الحديث، وهو قوله: "اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين" صححه بعض العلماء من حديث آخر، أوله "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي ... " الحديث، رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٧، ح ١٧٨٦١)، والنسائي،

وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي، ١/ ٢٨٠ - ٢٨١، ح ١٢٣٧، ١٢٣٨ وابن حبان في صحيحه (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥/ ٣٠٤ - ٣٠٥، ح ١٩٧١)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٢٤ - ٥٢٥).

(١٢) نهاية الحديث في ج: (ونعادي بعداوتك من عاداك وخالف أمرك).

(١٣) في ج (أئمة يقتدى) بدل (يهتدى).

(١٤) رواه الطبري بمعناه، (تفسير الطبري ١٩/ ٣١٩).

(١٥) أبو صالح اسمه باذام، ويقال: باذان، مولى أم هاني بنت أبى طالب رضي الله عنها، حدَّث عنها وعن علي، وابن عباس، وأبي هريرة رضي الله عنهم، وعامة ما يرويه تفسير. (انظر: سير أعلام البلاء ٥/ ٣٧ - ٣٨)، وتهذيب التهذيب ١/ ٤١٦ - ٤١٧).

(١٧) أخرحه الفريابي عن أبي صالح، (الدر المنثور، للسيوطي، ٥/ ١٤٩).

(١٨) مكحول، يُكنى أبا عبد الله -وقيل غير ذلك- الدمشقي الفقيه، عالم أهل الشام، تابعي ثقة، مولى امرأة هذلية. واختلف في وفاته ما بين (١١٢ هـ) إلى (١١٨ هـ)، (انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٥ - ١٦٠، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٨٩ - ٢٩٣).

(١٩) ذكره الواحدي النيسابوري في تفسيره، عن مكحول، (الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٣٤٩). وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة، قال: "قادة في الخير ودعاة وهداة يؤتم بهم في الخير"، (انظر: الدر المنثور ٥/ ١٤٩).

(٢٠) في ب، وج (المقتدون) بدل (المتقون).

(٢١) مجاهد بن جبر، شيخ القراء والمفسرين، رجَّح الذهبي أنه مولى السائب بن أبي السائب والد عبد الله بن السائب رضي الله عنه، ولد سنة (٢١ هـ) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، روى عن ابن عباس رضي الله عنه، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وروى عن عدد من الصحابة، وصح عنه أنه قال: عَرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقفه عند كل آية، أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ وحدَّث عن مجاهد خلق كثير، توفى سنة (١٠٣ هـ)، وقد نيف على الثمانين. (انظر: معرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ٦٦ - ٦٧، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩ - ٤٥٧، وغاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري ٢/ ٤١ - ٤٢، وطبقات المفسرين، للداودي ٢/ ٣٠٥ - ٣٠٨).

(٢٢) رواه الطبري بسنده في تفسيره (١٩/ ٣٢٠). وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٧٢)، وعبد بن حميد، (انظر: الدر المنثور ٥/ ١٤٩).

(٢٣) فى ج (وقد أشكل).

(٢٤) (القول) و(باب) سقطتا من ج.

(٢٥) القلب: نوع من أنواع الأسلوب اللغوي. (انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٣/ ٢٨٨ - ٢٩٣، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٣/ ١١٦).

(٢٦) في ج (أي) بدل (على تقدير).

(٢٧) بالرفع في النُّسخ جميعها؛ لأن (كان) تامة، فاقتُصر على الفاعل.

(٢٨) من (ج) في غيرها (على).

(٢٩) في ب (فإن الرجل لا يكون).

(٣٠) في ب (وقد اهتدوا هم (بدل) وهو اقتداؤهم).

(٣١) في ب زيادة (الذين).

(٣٢) في ب (قبل).

(٣٣) في ج: (قبل أن يأتم به من بعده فإنه يكون إمامًا لهما)، بدل: (قبله؛ ائتم به من بعده ومن معه).

(٣٤) في ج (قاله) بدل (وهذا قول).

(٣٥) انظر: معاني القرآن، للأخفش (٣/ ٤٢٣). والأخفش، هو سعيد بن مسعدة المجاشعي، مولى بني مجاشع، يُكنى أبا الحسن، صحب الخليل وسيبويه، وكان قدريًا غير غال. من كتبه: المسائل الكبير، والعروض، توفى سنة (٢١٥ هـ) على خلاف فيها، (انظر: طبقات النحويين، للزبيدي ٧٤ - ٧٦، وإنباه الرواة، للقفطي ٢/ ٣٦ - ٤٢، وبغية الوعاة، للسيوطي ١/ ٥٩٠ - ٥٩١).

(٣٦) في ج (وقيل) بدل (وقال آخرون).

(٣٧) قال الطبري: "هذا القول ... قول نحويي أهل الكوفة"، تفسير الطبري (١٩/ ٣٢٠)، وانظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/ ٩٩٢)، والفريد في إعراب القرآن، للهمذاني (٣/ ٦٤٣).

(٣٨) في ج (وهو).

(٣٩) معاني القرآن، للفراء (٢/ ٢٧٤). والفراء هو أبو زكريا: يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي، وكان من أبرع الكوفيين وأعلمهم، قيل: لولا الفراء ما كانت عربية؛ لأنه خلصها وضبطها، له تصانيف عديدة، منها: المصادر في

القرآن، والجمع والتثنية في القرآن، وآلة الكتاب، والحدود. مات بطريق مكة سنة (٢٠٧ هـ). (انظر: طبقات النحويين، للزبيدي ١٤٣ - ١٤٦، وإنباه الرواة، للقفطي ٢/ ٤٠، ٤/ ٧ - ٢٣، وبغية الوعاة، للسيوطي ٢/ ٣٣٣).

(٤٠) في ج (ذلك كقوله).

(٤١) مع أن الخطاب صادر عن موسى وهارون عليهما السلام.

(٤٢) (ولم يقل رسولا) ساقطة في ج.

(٤٣) انظر: الصحاح، للجوهري (٢/ ٧٣١) مادة (ظهر).

(٤٤) في ج (كقوله) بدل (لقول الشاعر).

(٤٥) في الأصل، وب (تزدن)، بالزاي المعجمة، وكذلك عند السيوطي: (شرح شواهد المغني ٢/ ٥٦١)، لكن أكثر من ذكر البيت أورده بالراء المهملة (تردن)، وذكره ابن جني بالراء في الخصائص مستشهدًا بشطره الأول، ولا يصلح الاستشهاد به لما ذَكره إلا بالراء المهملة، فقد أورده في باب الاكتفاء بالسبب من المسبَّب وبالمسبب من السبب، فقال بعد إيراد البيت: "أراد: لا تلمنني، فاكتفى بإرادة اللوم منه، وهو تالٍ لها ومسبَّب عنها"، (٣/ ١٧٣ - ١٧٤)، ومثله ابن هشام فى مغنى اللبيب (١/ ١٣٧).

(٤٦) هكذا عند أكثر من ذكره، والقاعدة أن يقول: (لسن)، وورد البيت على القاعدة في تفسير الطبري (١٩/ ٣٢٠)، وفي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (١/ ٢٣٧)، وقال شارح أبيات مغني اللبيب: "النون في (لسن) ضمير العواذل، وروي في كتاب (التفسح في اللغة) [لأبي الحسين النحوي]

وفي بعض نسخ (صحاح الجوهري) (ليس) بدون ضمير، والأول هو الجيد"، (شرح أبيات مغني اللبيب، عبد القادر بن عمر البغدادي ٤/ ٢٨٤).

(٤٧) لم أقف على نِسبه لهذا البيت، وقال البغدادي - المتوفى عام (١٠٩٣ هـ): "والبيت مشهور بتداول العلماء إياه في مصنفاتهم، ولم أقف على قائله"، (شرح أبيات مغني اللبيب ٤/ ٢٨٤)، وقال أيضًا: "وأورده أبو حيان في تذكرته عن الإمام المرزوقي، بأن فعيلًا قد يكون للجمع"، المرجع السابق (٤/ ٢٨٣). وأورده أيضًا ابن جني في الخصائص (٣/ ١٧٤)، والجوهري في الصحاح (٢/ ٧٣١) مادة (ظهر)، وغيرهم.

وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدِ بَيَانٍ (١)، وَهُوَ: أَنَّ الْمُتَّقِينَ كُلَّهُمْ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَمَعْبُودُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَتْبَاعُ كِتَابٍ وَاحِدٍ، وَنَبِيٍّ وَاحِدٍ، وَعَبِيدُ رَبٍّ وَاحِدٍ. فَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ، وَمَعْبُودُهُمْ وَاحِدٌ (٢)، فَكَأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ إِمَامٌ وَاحِدٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لَيْسُوا (٣) كَالْأَئِمَّةِ الْمُخْتَلِفِينَ الَّذِينَ قَدِ اخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمْ، وَمَذَاهِبُهُمْ، وَعَقَائِدُهُمْ (٤)، فَالِائْتِمَامُ إِنَّمَا هُوَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْإِمَامُ فِي الْحَقِيقَةِ.

فَصْلٌ

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْإِمَامَةَ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ [وَالْيَقِينِ] فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السَّجْدَةِ: ٢٤].

فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ (٥).

فَقِيلَ: بِالصَّبْرِ عَنِ الدُّنْيَا (٦).

وَقِيلَ: بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ (٧).

وَقِيلَ: بِالصَّبْرِ عَنِ [الْمَنَاهِي].

وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ بِالصَّبْرِ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، بِالصَّبْرِ [عَلَى] أَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ، وَالصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَقْدَارِهِ.

وَجَمَعَ -سُبْحَانَهُ- بَيْنَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ؛ إِذْ هُمَا (٨) سَعَادَةُ الْعَبْدِ، وَفَقْدُهُمَا يُفْقِدُهُ (٩) سَعَادَتَهُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ تَطْرُقُهُ طَوَارِقُ الشَّهَوَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِأَمْرِ اللهِ (١٠)، وَطَوَارِقُ (١١) الشُّبُهَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِخَبَرِهِ، فَبِالصَّبْرِ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ، وَبِالْيَقِينِ يَدْفَعُ (١٢) الشُّبُهَاتِ (١٣). فَإِنَّ الشَّهْوَةَ وَالشُّبْهَةَ مُضَادَّتَانِ لِلدِّينِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَلَا يَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا مَنْ دَفَعَ شَهَوَاتِهِ بِالصَّبْرِ، وَشُبُهَاتِهِ بِالْيَقِينِ؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- عَنْ حُبُوطِ أَعْمَالِ أَهْلِ

الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ فَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التَّوْبَةِ: ٦٩]، فَهَذَا (١٤) الِاسْتِمْتَاعُ بِالْخَلَاقِ هُوَ اسْتِمْتَاعُهُمْ بِنَصِيبِهِمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، وَهَذَا هُوَ الْخَوْضُ بِالْبَاطِلِ (١٥) فِي دِينِ اللهِ وَهُوَ خَوْضُ أَهْلِ الشُّبُهَاتِ (١٦). ثُمَّ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾ [التَّوْبَةِ: ٦٩ (١٧)]، فَعَلَّقَ -سُبْحَانَهُ- حُبُوطَ الْأَعْمَالِ فِي الْخُسْرَانِ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ الَّذِي هُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْخَلَاقِ، وَبِاتِّبَاعِ الشُّبُهَاتِ الَّذِي هُوَ الْخَوْضُ بِالْبَاطِلِ (١٨).

فَصْلٌ

وَكَمَا أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَّقَ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ (١٩) فَالْآيَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِأَصْلَيْنِ آخَرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ وَهِدَايَةُ خَلْقِهِ (٢٠).

الثَّانِي: هِدَايَتُهُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، لَا بِمُقْتَضَى عُقُولِهِمْ، وَآرَائِهِمْ، وَسِيَاسَاتِهِمْ، وَأَذْوَاقِهِمْ، وَتَقْلِيدِ أَسْلَافِهِمْ (٢١)

بِغَيْرِ بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...﴾ [السَّجْدَةِ: ٢٤ (٢٢)].

فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أُصُولٍ تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْآيَةُ:

أَحَدُهَا: الصَّبْرُ، وَهُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَحَبْسُهَا عَلَى فَرَائِضِهِ، وَحَبْسُهَا عَنِ التَّسَخُّطِ وَالشِّكَايَةِ لِأَقْدَارِهِ.

الثَّانِي: الْيَقِينُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ الْجَازِمُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا رَيْبَ [فِيهِ] وَلَا تَرَدُّدَ وَلَا شَكَّ (٢٣) وَلَا شُبْهَةَ بِخَمْسَةِ أُصُولٍ، ذَكَرَهَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٧٧]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾ [النِّسَاءِ: ١٣٦]، وَفِي قَوْلِهِ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٨٥]، وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ (٢٥) دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ.

وَجَمَعَ بَيْنَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ عُمَرَ، فِي قَوْلِهِ: "الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٢٦)".

فَهَذِهِ الْأُصُولُ الْخَمْسُ (٢٧)، مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَالْيَقِينُ: أَنْ يَقُومَ (٢٨) الْإِيمَانُ بِهَا حَتَّى تَصِيرَ كَأَنَّهَا مُعَايَنَةٌ لِلْقَلْبِ مُشَاهَدَةٌ لَهُ، نِسْبَتُهَا إِلَى الْبَصِيرَةِ كَنِسْبَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٢٩) إِلَى الْبَصَرِ (٣٠)، وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: ["الْيَقِينُ: الْإِيمَانُ كُلُّهُ (٣١)"].

الثَّالِثُ: هِدَايَةُ الْخَلْقِ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ:

(١) ذكر حسين بن أبي العز الهمذاني - (ت ٦٦٣ هـ) -في المسألة السابقة ستة أقوال (انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/ ٦٤٣ - ٦٤٤)، لكن خمسة منها تدخل في الأقوال الثلاثة التي ذُكرت، أما القول السادس عنده فقد ذكره ابن القيم بيانًا للقول الثالث.

(٢) من قوله (ومعبودهم واحد) الأولى، إلى قوله: (ومعبودهم واحد) الثانية، ورد في ب كالتالى: (ومعبود واحد، وسبيل واحد، ونبيهم نبي واحد. فدينهم واحد، وكتابهم واحد، ومعبودهم واحد)، وورد في ج كالتالي: (ونبيهم واحد، ومعبودهم واحد، وكتابهم واحد).

(٣) في ب (ليس).

(٤) في ج (الذين اختلفت مذاهبهم) بدل (المختلفين الذين قد اختلفت طرائقهم ومذاهبهم وعقائدهم).

(٥) قال ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ١٥٤): "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ...﴾ الآية"، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٤٤٢).

(٦) رُوي عن الحسن البصري، وقتادة، والثوري، (انظر: الكشاف، للزمخشري ٣/ ٢٤٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢، والدر المنثور ٥/ ٣٤٣).

(٧) في تفسير البغوي (٣/ ٥٠٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٧٣): "هذا الصبر: صبر على الدين وعلى البلاء".

(٨) في ج (بينهما لأن بهما) بدل (بين الصبر واليقين إذ هما).

(٩) في ب (نعقد) بدل (يفقده)، وفي ج (وبفقدهما يفقد) بدل (وفقدهما يفقده).

(١٠) في ج (للأمر) بدل (لأمر الله).

(١١) طوارق، في هذا الموضع وفي الذي قبله سقطتا من ج.

(١٢) في ج (تدفع) في الموضعين.

(١٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١/ ١٠٦).

(١٤) في ج (و) بدل (فهذا).

(١٥) في ب (خوض أهل الباطل) بدل (الخوض بالباطل).

(١٦) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٠٧).

(١٧) في ج (والخوض بالباطل في دين الله هو خوض الشبهات) بدل (ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ ....﴾ إلى ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(١٨) في ج (بذلك) بدل (باتباع الشهوات) إلى (بالباطل).

(١٩) في ج (بما ذكر) بدل (بالصبر واليقين).

(٢٠) في ج (أحدهما: هداية خلق الله).

(٢١) في ج (الآراء والأذواق وتقليد الأسلاف) بدلًا (عقولهم) إلى (أسلافهم).

(٢٢) زاد في إيراد الآية في الأصل ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ ولم ترد هذه الزيادة في ب، وهو أنسب في الاستدلال. وجملة (لأنه قال: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾) ساقطة من ج.

(٢٣) في ج (لا تردد فيه) بدل (لا ريب فيه ولا تردد ولا شك).

(٢٥) في الأصل (والإيمان بالله واليوم الآخر)، وفي ب، وج كما أثبت، وهو الصحيح؛ لأن الإيمان بالله مذكور فى الآية بخلاف الإيمان باليوم الآخر.

(٢٦) متفق عليه، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري (١/ ٢٢)، كتاب الإيمان، باب (٣٨) سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام (ح ٥٠). صحيح مسلم (١/ ٣٦)، كتاب الإيمان، باب (١) بيان الإيمان والإسلام، (ح ١). ومن قوله: (وجمع بينها) إلى نهاية الحديث سقط من ج.

(٢٧) في ج (أصول) بدل (الأصول الخمس).

(٢٨) في ج (يقوى) بدل (يقوم).

(٢٩) في ج (كالشمس إلى البصر) بدل (مشاهدة له نسبتها إلى البصيرة كنسبة الشمس والقمر).

(٣٠) قال ابن القيم في مدارج السالكين: "المعاينة نوعان: معاينة بصر، ومعاينة بصيرة. فمعاينة البصر: وقوعه على نفس المرئي، أو مثاله الخارجي، كرؤية مثال الصورة في المرآة والماء. ومعاينة البصيرة: وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي. فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين للصورة الخارجية" (٣/ ٢٤٨).

(٣١) في الأصل، وب (الإيمان هو اليقين كله)، وهو خطأ، والمثبت من ج. والأثر رواه وكيع عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا، ولفظه: "الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله". كتاب الزهد لوكيع (٢/ ٤٥٦)، أثر رقم (٢٠٣). ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٠٧، ح ٨٥٤٤). وقال

الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح" مجمع الزوائد (١/ ٢٢٠). وأخرجه غيرهما، انظر تخريجه مفصلًا في حاشية كتاب الزهد لوكيع (٢/ ٤٥٦ - ٤٥٨).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣]. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: "هَذَا حَبِيبُ اللهِ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ، أَسْلَمَ لِلهِ، وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ، وَدَعَا الْخَلْقَ إِلَيْهِ (٤)"، فَهَذَا النَّوْعُ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَهُمْ ثَنِيَّةُ اللهِ - سُبْحَانَهُ (٥) - مِنَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ تَعَالَى: «وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)» [الْعَصْرِ: ٣]، فَأَقْسَمَ -سُبْحَانَهُ- عَلَى خُسْرَانِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، إِلَّا مَنْ كَمَّلَ نَفْسَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمَّلَ غَيْرَهُ بِوَصِيَّتِهِ لَهُ بِهِمَا؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ (٦) لَكَفَتْهُمْ (٧)".

وَلَا يَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا مَنْ دَعَا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يُوسُفَ: ١٠٨]، فَقَوْلُهُ: ﴿أَدْعُو إِلَى

اللَّهِ}: تَفْسِيرٌ لِسَبِيلِهِ [الَّتِي] هُوَ عَلَيْهَا، فَسَبِيلُهُ وَسَبِيلُ أَتْبَاعِهِ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللهِ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِهِ (٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ (٩): الْبَصِيرَةُ الثَّبَاتُ فِي الدِّينِ (١٠).

وَقِيلَ (١١): الْبَصِيرَةُ: الْعِبْرَةُ، كَمَا يُقَالُ: [أَلَيْسَ] لَكَ فِي كَذَا بَصِيرَةٌ؟ أَيْ: عِبْرَةٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِيـ ... ـنَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ (١٢)

وَالتَّحْقِيقُ: الْعِبْرَةُ ثَمَرَةُ (١٣) الْبَصِيرَةِ، فَإِذَا تَبَصَّرَ اعْتَبَرَ (١٤)، فَمَنْ عُدِمَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّهُ لَا بَصِيرَةَ لَهُ.

وَأَصْلُ اللَّفْظِ مِنَ الظُّهُورِ وَالْبَيَانِ، فَالْقُرْآنُ بَصَائِرُ، أَيْ: أَدِلَّةٌ وَهُدًى وَبَيَانٌ (١٥) يَقُودُ إِلَى الْحَقِّ، وَيَهْدِي إِلَي الرُّشْدِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلطَّرِيقَةِ مِنَ [الدَّمِ] الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الرَّمِيَّةِ: بَصِيرَةٌ.

فَدَلَّتِ الْآيَةُ أَيْضًا عَلَى [أَنَّ] مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى بَصِيرَةٍ فَلَيْسَ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ أُولُو الْبَصَائِرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى: أَدْعُو إِلَى اللهِ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَيَكُونُ ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي

{أَدْعُو} (١٦) - وَحَسُنَ (١٧) الْعَطْفُ (١٨)؛ لِأَجْلِ الْفَصْلِ - فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ هُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ.

وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفًا (١٩) عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي {سَبِيلِي} أَيْ: هَذِهِ سَبِيلِي وَسَبِيلُ مَنِ اتَّبَعَنِي (٢٠) فَكَذَلِكَ (٢١).

وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَبِسَبِيلِهِ وَسَبِيلِ أَتْبَاعِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ.

الْأَصْلُ الرَّابِعُ: قَوْلُهُ: {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [السَّجْدَةِ: ٢٤]، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى اتِّبَاعِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَهِدَايَتِهِمْ بِهِ وَحْدَهُ، دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْآرَاءِ وَالنِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ، بَلْ لَا يَهْدُونَ إِلَّا بِأَمْرِهِ خَاصَّةً.

فَحَصَلَ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَئِمَّةَ الدِّينِ الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِالسُّنَّةِ وَالْوَحْيِ لَا بِالْآرَاءِ وَبِالْبِدَعِ، فَهَؤُلَاءِ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ، وَهُمْ خَاصَّتُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ، وَمَنْ عَادَاهُمْ أَوْ حَارَبَهُمْ فَقَدْ عَادَى اللهَ -سُبْحَانَهُ- وَآذَنَهُ بِالْحَرْبِ (٢٢).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٨٤١)، أثر رقم (١١٢٠)، ورواه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٦٩). وهو عندهما باللفظ التالي -مع اختلاف يسير بينهما-: "كان إذا تلا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت: ٣٣] قال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين لربه، هذا خليفة الله"، (الزهد ٢/ ٨٤١ - ٨٤٢).

(٥) في ب (وهو ثنيته سبحانه) بدل (وهم ثنية الله سبحانه)، وفي ج (وهو المستثنى) بدلها.

(٦) في ج (فيها) بدل (في سورة العصر).

(٧) ذكره ابن كثير في تفسيره بلفظ: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم" (٤/ ٥٨٥).

(٨) في ج (هو وأتباعه) بدل (فسبيله وسبيل) إلى (على سبيله).

(٩) هو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، من موالي بني هاشم، كان نحويًا، عالمًا باللغة والشعر، ناسبًا، قال الذهبي: "وكان صاحب سنة واتباع"، (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٨٨). له عدة كتب في النوادر، وله كتاب الأنواء، وصفة الخيل، ومعاني الشعر، وغير ذلك. توفي سنة (٢٣١ هـ) وقد جاوز الثمانين. (انظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر

الزبيدي، ص ٢١٣ - ٢١٥، وإنباه الرواة، للقفطي ٣/ ١٢٨ - ١٣١، وبغية الوعاة، للسيوطي ١/ ١٠٥ - ١٠٦).

(١٠) لسان العرب (٤/ ٦٥)، وتاج العروس (١٠/ ٢٠٩)، ولم ينسباه لأحد. وقال في تاج العروس: "وعن ابن الأعرابي: أبصر الرجل إذا خرج من الكفر إلى بصيرة الإيمان ... " (١٠/ ٢٠٩).

(١١) كتاب العين، للخليل، ذكر القول والشاهد (٧/ ١١٨).

(١٢) نسبه الجاحظ ضمن خمسة أبيات لقس بن ساعدة، (البيان والتبيين ١/ ٣٠٩).

(١٣) في ب، وج (ثم) بدل (ثمرة).

(١٤) في ج (فإذا اعتبر تبصر) بدل (فإذا تبصر اعتبر).

(١٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٤).

(١٦) انظر: إعراب القرآن، للنحاس (٢/ ١٦٠). وتفسير النسفي (٢/ ١٣٣).

(١٧) في ب (وأحسن) بدل (وحسن).

(١٨) قال ابن القيم: "أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة" مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤).

(١٩) في ج (المعطوف).

(٢٠) من هنا يبدأ سقط في ب، وج، بنحو اثنين وثلاثين سطرًا مطبوعًا. وكُتب في حاشية ب - بخط الناسخ -: "سقط في الأصل من هذا الموضع شيء، لا أدري ورقة أم أكثر؟ " (٧/ أ)، وفي حاشية ج: (هكذا في الأصول المنقول منها) (٥/أ).

(٢١) ذكر ابن القيم رحمه الله هذه المسألة في (مدارج السالكين ٢/ ٤٨٢، وجلاء الأفهام في ص ٣١٧، ومفتاح دار السعادة ١/ ١٥٤، والصواعق المرسلة ١/ ١٥٥).

(٢٢) روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب"، صحيح البخاري، كتاب الرقاق باب (٣٨) التواضع (٧/ ٢٤٣، ح ٦٥٠٢).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ فِي خُطْبَةِ كِتَابِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ (١): "الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ [بَقَايَا] مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللهِ الْمَوْتَى، [وَيُبَصِّرُونَ] بِنُورِ اللهِ أَهْلَ الْعَمَى، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَكَمْ مِنْ [ضَالٍّ] تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ! وَمَا أَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ! يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ، وَأَطْلَقُوا عِنَانَ الْفِتْنَةِ مِمَّا فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ، مُجْمِعُونَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْكِتَابِ، يَقُولُونَ عَلَى اللهِ وَفِي اللهِ وَفِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، يَتَكَلَّمُونَ

بِالْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمْ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتَنِ الْمُضِلِّينَ (٢)".

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَنْبَغِي الِاعْتِنَاءُ بِهِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَقَصْدًا وَإِرَادَةً: الْعِلْمُ بِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ، بَلْ كُلَّ حَيَوَانٍ، إِنَّمَا يَسْعَى فِيمَا يُحَصِّلُ لَهُ اللَّذَّةَ وَالنَّعِيمَ وَطِيبَ الْعَيْشِ، وَيَنْدَفِعُ بِهِ عَنْهُ أَضْدَادُ ذَلِكَ، وَهَذَا مَطْلُوبٌ صَحِيحٌ يَتَضَمَّنُ سِتَّةَ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ النَّافِعِ لِلْعَبْدِ، الْمُلَائِمِ لَهُ، الَّذِي بِحُصُولِهِ لَذَّتُهُ وَفَرَحُهُ وَسُرُورُهُ وَطِيبُ عَيْشِهِ.

الثَّانِي: مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ الْمُوصِلَةِ إِلَى ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: سُلُوكُ تِلْكَ الطَّرِيقِ.

الرَّابِعُ: مَعْرِفَةُ الضَّارِّ: الْمُؤْذِي الْمُنَافِرِ الَّذِي يُنَكِّدُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ.

الْخَامِسُ: مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ الَّتِي إِذَا سَلَكَهَا أَفْضَتْ بِهِ إِلَى ذَلِكَ.

السَّادِسُ: تَجَنُّبُ سُلُوكِهَا.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ لَا تَتِمُّ لَذَّةُ الْعِيدِ وَسُرُورُهُ وَفَرَحُهُ وَصَلَاحُ حَالِهِ إِلَّا بِاسْتِكْمَالِهَا، وَمَا نَقَصَ مِنْهَا عَادَ (٣) بِسُوءِ حَالِهِ، وَتَنْكِيدِ حَيَاتِهِ (٤).

وَكُلُّ عَاقِلٍ يَسْعَى فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ غَلِطَ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْمَطْلُوبِ الْمَحْبُوبِ النَّافِعِ، إِمَّا فِي عَدَمِ تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَإِمَّا فِي عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ. فَهَذَانِ غَلَطَانِ سَبَبُهُمَا الْجَهْلُ، [وَيُتَخَلَّصُ] مِنْهُمَا بِالْعِلْمِ.

وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ الْعِلْمُ بِالْمَطْلُوبِ، وَالْعِلْمُ بِطَرِيقِهِ، لَكِنْ فِي قَلْبِهِ إِرَادَاتٌ وَشَهَوَاتٌ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَصْدِ هَذَا الْمَطْلُوبِ النَّافِعِ وَسُلُوكِ طَرِيقِهِ، فَكُلَّمَا أَرَادَ [ذَلِكَ] اعْتَرَضَتْهُ تِلْكَ الشَّهَوَاتُ وَالْإِرَادَاتُ، وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَهُوَ لَا يُمْكِنُهُ تَرْكُهَا وَتَقْدِيمُ هَذَا الْمَطْلُوبِ (٥) عَلَيْهَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا حُبٌّ مُتَعَلِّقٌ (٦)، وَإِمَّا فَرَقٌ (٧) مُزْعِجٌ (٨).

فَيَكُونُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ وَالْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ [لَا يُمْكِنُهُ] الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فَيُؤْثِرُ أَعْلَى الْمَحْبُوبَيْنِ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ لَهُ عِلْمُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِيثَارِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْمَخَاوِفِ وَالْآلَامِ الَّتِي أَلَمُهَا أَشَدُّ

مِنْ أَلَمِ فَوَاتِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَأَبْقَى. فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ هَذَانِ الْعِلْمَانِ أَنْتَجَا لَهُ إِيثَارَ مَا يَنْبَغِي إِيثَارُهُ، وَتَقْدِيمَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ (٩)؛ فَإِنَّ خَاصَّةَ (١٠) الْعَقْلِ: إِيثَارُ أَعْلَى الْمَحْبُوبَيْنِ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَاحْتِمَالُ أَدْنَى الْمَكْرُوهَيْنِ لِيَتَخَلَّصَ بِهِ مِنْ أَعْلَاهُمَا (١١).

وَبِهَذَا الْأَصْلِ تَعْرِفُ عُقُولَ النَّاسِ، وَتُمَيِّزُ بَيْنَ الْعَاقِلِ وَغَيْرِهِ (١٢)، وَيَظْهَرُ تَفَاوُتُهُمْ فِي الْعُقُولِ. فَأَيْنَ (١٣) عَقْلُ مَنْ آثَرَ لَذَّةً عَاجِلَةً مُنَغَّصَةً (١٤) مُنَكَّدَةً - إِنَّمَا هِيَ كَأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، أَوْ كَطَيْفٍ تَمَتَّعَ بِهِ مِنْ [زَائِرِهِ] فِي الْمَنَامِ - عَلَى لَذَّةٍ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ اللَّذَّاتِ، وَفَرْحَةٍ وَمَسَرَّةٍ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَرَّاتِ، دَائِمَةٍ لَا تَزُولُ وَلَا تَفْنَى وَلَا تَنْقَطِعُ؛ فَبَاعَهَا بِهَذِهِ اللَّذَّةِ الْفَانِيَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ الَّتِي حُشِيَتْ بِالْآلَامِ، وَإِنَّمَا حَصَلَتْ بِالْآلَامِ، وَعَاقِبَتُهَا الْآلَامُ؟ فَلَوْ قَايَسَ الْعَاقِلُ بَيْنَ لَذَّتِهَا (١٥) وَأَلَمِهَا، وَمَضَرَّتِهَا وَمَنْفَعَتِهَا؛ لَاسْتَحْيَا مِنْ نَفْسِهِ وَعَقْلِهِ، كَيْفَ يَسْعَى فِي طَلَبِهَا! وَيُضِيعُ زَمَانَهُ فِي اشْتِغَالِهِ بِهَا! فَضْلًا عَنْ إِيثَارِهَا عَلَى "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ (١٦)! ".

(١) الجهمية: أتباع جهم بن صفوان السمرقندي، أبي محرز مولى بني راسب من الأزد، قُتل في آخر ملك بني أمية. وهم من الفرق الضالة التي خالفت أهل السنة، ومن مخالفاتهم أنهم يقولون: إن الإيمان عقد بالقلب فقط، وإن علم الله محدث مخلوق، وإنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه، وإن الجنة والنار تفنيان ويفنى من فيهما، تعالى الله عما يقولون. (انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧، ٢٦٦، ٥/ ٧٣، والملل والنحل، للشهرستاني ١/ ٨٦ - ٨٧).

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد بن حنبل، (ص ٨٥).

(٣) إلى هنا ينتهي السقط في نسخة ب.

(٤) إلى هنا ينتهي السقط في ج.

(٥) في ج (ولا يمكنه تقديم هذا) بدل (فكلما أراد) إلى (المطلوب).

(٦) في ب، وج (مقلق) بدل (متعلق)، وعقد ابن القيم في (مدارج السالكين ٣/ ٢٧ - ٣٢) فصلًا في مراتب المحبة وعدَّها عشر مراتب فقال: "أولها (العلاقة) وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب"، وانظر: (العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦)، وقال الجوهري في (الصحاح ٤/ ١٥٢٩): "عَلِقَهَا بالكسر وعَلِق حُبُّها بقلبه أي: هَوِيَها". ولِما ورد في ب، وج وجه قوي، فقد تكلم ابن القيم عن منزلة (القلق) لدى أهل التصوف، وذكرة أنه قوة في الشوق لدى صاحبه يتجرد فيها عن الصبر، فتجده يلتذ بالموت إذا ذُكر. (انظر مدارج السالكين ٣/ ٥٩ - ٦١).

(٧) أي: خوف، (لسان العرب ١٠/ ٣٠٤).

(٨) هنا تنتهي نسخة د.

(٩) من قوله: (ويعلم أنه) إلى (ما سواه) ورد في ج بما يشبه التفسير له، ونصه: (فإذا تمكن من قلبه أنه، يمكنه الجمع بين هذه الشهوة وبين لذة الآخرة، وعلم ما يترتب عليهما من الآخرة التي هي أشد من ألم الصبر عن هذه الشهوات فهذان العلمان ينتجان إيثار ما ينبغي له إيثاره).

(١٠) في ب، وج (خاصة).

(١١) زاد ابن القيم هذا الكلام بيانًا في الداء والدواء (ص ٣١٠).

(١٢) في ج (وتميز العاقل من غيره).

(١٣) في ب زيادة (من).

(١٤) في ج (منقضية) بدل (منغصة).

(١٥) في ب (لذاتها).

(١٦) اقتباس من الحديث القدسي المتفق عليه في وصف الجنة: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب (٨) ما جاء في وصف الجنة (٤/ ١٠٣، ح ٣٢٤٤). وصحيح مسلم، كتاب الجنة، (٤/ ٢١٧٤، ح ٢).

وَقَدِ اشْتَرَى -سُبْحَانَهُ- مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ، [وَجَعَلَ] ثَمَنَهَا جَنَّتَهُ (١)، وَأَجْرَى هَذَا الْعَقْدَ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ وَخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ (٢). فَسِلْعَةٌ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُشْتَرِيهَا، وَالتَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ فِي دَارِهِ ثَمَنُهَا، وَمَنْ جَرَى عَلَى يَدِهِ الْعَقْدُ رَسُولُهُ، كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُضِيعَهَا

وَيُهْمِلَهَا وَيَبِيعَهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ، فِي دَارٍ زَائِلَةٍ مُضْمَحِلَّةٍ فَانِيَةٍ! وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ؟ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُ هَذَا الْغَبْنُ الْفَاحِشُ يَوْمَ التَّغَابُنِ، إِذَا ثَقُلَتْ مَوَازِينُ الْمُتَّقِينَ وَخَفَّتْ مَوَازِينُ الْمُبْطِلِينَ.

فَصْلٌ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَاللَّذَّةُ التَّامَّةُ، وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَطِيبُ الْعَيْشِ، وَالنَّعِيمُ، إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، وَاجْتِمَاعِ الْقَلْبِ وَالْهَمِّ عَلَيْهِ. فَإِنَّ أَنْكَدَ الْعَيْشِ عَيْشُ مَنْ قَلْبُهُ مُشَتَّتٌ، وَهَمُّهُ مُفَرَّقٌ، فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ يَسْتَقِرُّ عِنْدَهُ وَلَا حَبِيبٌ يَأْوِي إِلَيْهِ وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ، كَمَا أَفْصَحَ الْقَائِلُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (٣):

وَمَا ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَبِيبٌ إِلَيْهِ يَطْمَئِنُّ وَيَسْكُنُ

فَالْعَيْشُ الطَّيِّبُ، وَالْحَيَاةُ النَّافِعَةُ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ فِي السُّكُونِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَى الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ، وَلَوْ تَنَقَّلَ الْقَلْبُ فِي الْمَحْبُوبَاتِ كُلِّهَا لَمْ يَسْكُنْ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ [إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا]، وَلَمْ تَقَرَّ [بِهِ] عَيْنُهُ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَى إِلَهِهِ وَرَبِّهِ وَوَلِيِّهِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ، وَلَا غِنَى لَهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ (٤):

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ ... شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ (٥) الْأَوَّلِ كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ (٦)

فَاحْرِصْ أَنْ يَكُونَ هَمُّكَ وَاحِدًا، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ اللهَ وَحْدَهُ، فَهَذَا غَايَةُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ (٧) .. وَصَاحِبُ هَذِهِ الْحَالِ (٨) فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ قَبْلَ جَنَّةِ الْآخِرَةِ وَفِي نَعِيمٍ عَاجِلٍ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْوَاجِدِينَ (٩): "إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ (١٠)". وَقَالَ آخَرُ: "إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا (١١)". وَقَالَ آخَرُ: "مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا! خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ ... مَا فِيهَا. قِيلَ لَهُ: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا (١٢)؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُ، وَالْأُنْسُ بِقُرْبِهِ (١٣)، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ (١٤)".

وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ أَهْلِ (١٥) الْجَنَّةِ إِلَّا هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ. وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ (١٦)"، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئَانِ: "النِّسَاءُ وَالطِّيبُ (١٧)"، ثُمَّ قَالَ: "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ".

وَقُرَّةُ الْعَيْنِ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَحْبُوبٍ تَقَرُّ بِهِ [الْعَيْنُ]، وَإِنَّمَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، [بِأَعْلَى] الْمَحْبُوبَاتِ، الَّذِي يُحَبُّ لِذَاتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا اللهَ (١٨) الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ فَيُحَبُّ لِأَجْلِهِ. وَلَا يُحَبُّ مَعَهُ (١٩)، فَإِنَّ الْحُبَّ مَعَهُ شِرْكٌ، وَالْحُبَّ لِأَجْلِهِ تَوْحِيدٌ. فَالْمُشْرِكُ يَتَّخِذُ ... مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللهِ، وَالْمُوَحِّدُ إِنَّمَا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ لِلهِ (٢٠)، وَيُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُ فِي اللهِ (٢١)، وَيَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ (٢٢) لِلهِ، وَيَتْرُكُ مَا يَتْرُكُهُ (٢٣) لِلهِ. وَمَدَارُ الدِّينِ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ، وَهِيَ: الْحُبُّ وَالْبُغْضُ، وَيَتَرَتَّبُ [عَلَيْهِمَا] الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ وَالْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ. فَمَنِ اسْتَكْمَلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ لِلهِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَا نَقَصَ مِنْهَا أَنْ كَوْنَ لِلهِ عَادَ بِنَقْصِ إِيمَانِ الْعَبْدِ (٢٤).

(١) إشاره إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

(٢) روى الطبري بسنده عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: "الجنة". قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٩، ح ١٧٢٧٠).

(٣) في ج (قيل) بدل (أفصح القائل عن ذلك بقوله).

(٤) في ب زيادة (شعر).

(٥) في ب (للخليل) بدل (للحبيب).

(٦) البيتان لأبي تمام ضمن أربعة أبيات، انظرها في شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي (٢/ ٢٩٠).

(٧) فى ج (السعادة) بدل (سعادة العبد).

(٨) في ب (الحالة)، وفي ج (وصاحبه) بل (وصاحب هذه الحال).

(٩) في ج (بعضهم).

(١٠) ذكره المؤلف في روضة المحبين (ص ١٦٥)، وفي مدارج السالكين قال: "وقال بعض العارفين" (١/ ٤٥٤)، ونُسب هذا القول إلى عابد طرسوسي يقال له: أبو سليمان المغربي، صفة الصفوة (٤/ ٢٣٨)، وانظر الحاشية التالية.

(١١) ذكره ابن كثير هو والذي قبله قولًا واحدًا، ونسبه إلى أبي سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني. البداية والنهاية، طبعة دار المعرفة، حوادث سنة (٢٠٥ هـ)، (١٠/ ٦٩٨).

(١٢) في ج (وما هو) بدل (وما أطيب ما فيها).

(١٣) في ج (به) بدل (بقربه).

(١٤) نقله المؤلف في روضة المحبين (ص ١٦٥) عن (بعض العارفين)، وفي مدارج السالكين، عن (بعض المحبين)، (١/ ٤٥٤) ورواه أبو نعيم وابن الجوزي عن ابن المبارك، دون قوله: (ومحبته، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه)، حلية الأولياء (٨/ ١٦٧)، وصفة الصفوة (٤/ ١٢٤).

(١٥) (أهل) ساقطة عن ب، وج.

(١٦) رواه الإمام أحمد، (المسند ٤/ ٢٠١، ح ١٣٦٢٣، ٣/ ٥٨١، ح ١٨٨٤، وح ١١٨٨٥). ورواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، (٧/ ٧٢، ح ٣٩٤٩). والحاكم فى المستدرك، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي، (المستدرك ٢/ ١٦٠). وجود إسناده العراقي، (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار - بحاشية إحياء علوم الدين للغزالي - ٢/ ٣٠). وقال الألباني: "إسناده حسن"، (تحقيق مشكاة المصابيح ٣/ ١٤٤٨، ح ٥٢٦١).

(١٧) (النساء والطيب) ساقطة عن ج.

(١٨) في ب، وج (إلا لله).

(١٩) انظر العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣٠).

(٢٠) في ب، وج (والموحد إنما يحب من أحبه الله).

(٢١) في ب (ويبغض من أبغضه الله)، وفي ج (ويبغض من يبغضه الله).

(٢٢) في ب، وج (ما يفعل).

(٢٣) في ب (ما يترك).

(٢٤) في ج (بنقص الإيمان) بدل (بنقص إيمان العبد). وقد روى أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان"، (سنن أبي داود ٥/ ٦٠، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٤ ح ٤٦٨١)، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٦٥٧ - ٦٥٨، ح ٣٨٠)، ورواه الترمذي وحسنه، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه مرفوعًا، بتقديم وتأخير، بزيادة "وأنكح لله"، وعنده: "فقد استكمل إيمانه"، (سنن الترمذي، ٤/ ٥٧٨ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٦٠، ح ٢٥٢١).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَا تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ مَا يُحِبُّهُ، فَالصَّلَاةُ قُرَّةُ عُيُونِ الْمُحِبِّينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِمَا فِيهَا مِنْ مُنَاجَاةِ مَنْ لَا تَقَرُّ ... الْعُيُونُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وَلَا تَسْكُنُ [النُّفُوسُ] إِلَّا إِلَيْهِ (١)، وَالتَّنَعُّمِ بِذِكْرِهِ، [وَالتَّذَلُّلِ] وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالْقُرْبِ مِنْهُ، وَلَا سِيَّمَا فِي حَالِ السُّجُودِ، وَتِلْكَ الْحَالُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِيهَا (٢)، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ "يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ

(٣)"، فَأَعْلَمَ بِذَلِكَ (٤) أَنَّ رَاحَتَهُ ﷺ فِي الصَّلَاةِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا. فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: نُصَلِّي وَنَسْتَرِيحُ مِنَ الصَّلَاةِ!

فَالْمُحِبُّ رَاحَتُهُ وَقُرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، وَالْغَافِلُ (٥) الْمُعْرِضُ، لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ الصَّلَاةُ كَبِيرَةٌ (٦) شَاقَّةٌ عَلَيْهِ (٧)، إِذَا قَامَ فِيهَا كَأَنَّهُ عَلَى الْجَمْرِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ [إِلَيْهِ] أَعْجَلُهَا وَأَسْرَعُهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ فِيهَا، وَلَا لِقَلْبِهِ رَاحَةٌ بِهَا (٨)، وَالْعَبْدُ إِذَا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِشَيْءٍ وَاسْتَرَاحَ قَلْبُهُ بِهِ (٩) فَأَشَقُّ مَا عَلَيْهِ مُفَارَقَتُهُ، وَالْمُتَكَلِّفُ الْفَارِغُ الْقَلْبِ مِنَ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ الْمُبْتَلَى بِمَحَبَّةِ الدُّنْيَا أَشَقُّ مَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، وَأَكْرَهُ مَا إِلَيْهِ طُولُهَا، مَعَ تَفَرُّغِهِ وَصِحَّتِهِ وَعَدَمِ اشْتِغَالِهِ (١٠)!

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تَقَرُّ بِهَا الْعَيْنُ وَيَسْتَرِيحُ بِهَا الْقَلْبُ هِيَ الَّتِي تَجْمَعُ سِتَّةَ مَشَاهِدَ:

الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ

وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ (١١) عَلَيْهَا وَالدَّاعِي إِلَيْهَا رَغْبَةَ الْعَبْدِ فِي اللهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ (١٢)، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَالْقُرْبَ مِنْهُ، وَالتَّوَدُّدَ

إِلَيْهِ، وَامْتِثَالَ أَمْرِهِ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَيْهَا حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ، بَلْ يَأْتِي بِهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، مَحَبَّةً، لَهُ وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَرَجَاءً لِمَغْفِرَتِهِ وَثَوَابِهِ.

الْمَشْهَدُ الثَّانِي: مَشْهَدُ الصِّدْقِ وَالنُّصْحِ

وَهُوَ أَنْ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ لِلهِ فِيهَا، وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَى اللهِ، وَجَمْعِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا وَإِيقَاعِهَا عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَإِنَّ الصَّلَاةَ لَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، فَظَاهِرُهَا الْأَفْعَالُ الْمُشَاهَدَةُ وَالْأَقْوَالُ الْمَسْمُوعَةُ (١٣)، وَبَاطِنُهَا الْخُشُوعُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَتَفْرِيغُ الْقَلْبِ لِلهِ، وَالْإِقْبَالُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى اللهِ فِيهَا، بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَذَا (١٤) بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لَهَا، وَالْأَفْعَالُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ، فَإِذَا خَلَتْ مِنَ الرُّوحِ كَانَتْ كَبَدَنٍ لَا رُوحَ فِيهِ، أَفَلَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يُوَاجِهَ سَيِّدَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ! وَلِهَذَا تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقُ وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وَتَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي.

حَدِيثٌ ضَعِيفٌ

وَالصَّلَاةُ [الَّتِي] كَمُلَ ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا تَصْعَدُ وَلَهَا نُورٌ وَبُرْهَانٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى تُعْرَضَ عَلَى اللهِ [فَيَرْضَاهَا]

وَيَقْبَلَهَا، وَتَقُولُ: حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي (١٥).

فَصْلٌ الْمَشْهَدُ [الثَّالِثُ]: مَشْهَدُ الْمُتَابَعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ

وَهُوَ أَنْ يَحْرِصَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى الِاقْتِدَاءِ فِي صَلَاتِهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيُصَلِّيَ كَمَا [كَانَ] يُصَلِّي؛ وَيُعْرِضَ عَمَّا أَحْدَثَ النَّاسُ فِي الصَّلَاةِ، مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَالْأَوْضَاعِ الَّتِي لَمْ يُنْقَلْ عَنْ رَسُولِ اللهِ شَيْءٌ مِنْهَا (١٦) وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ وَلَا يَقِفَ عِنْدَ (١٧) أَقْوَالِ الْمُرَخِّصِينَ الَّذِينَ يَقِفُونَ مَعَ أَقَلِّ مَا يَعْتَقِدُونَ وُجُوبَهُ، وَيَكُونُ غَيْرُهُمْ قَدْ نَازَعَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَوْجَبَ مَا أَسْقَطُوهُ، وَلَعَلَّ الْأَحَادِيثَ الثَّابِتَةَ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ مِنْ جَانِبِهِ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: (نَحْنُ مُقَلِّدُونَ لِمَذْهَبِ فُلَانٍ (١٨)). وَهَذَا لَا يُخَلِّصُ عِنْدَ اللهِ وَلَا يَكُونُ عُذْرًا لِمَنْ تَخَلَّفَ عَمَّا عَلِمَهُ مِنَ السُّنَّةِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- إِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَحْدَهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِاتِّبَاعِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا يُطَاعُ غَيْرُهُ إِذَا أَمَرَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ، وَكُلُّ أَحَدٍ سِوَى الرَّسُولِ ﷺ[فَمَأْخُوذٌ] مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ.

(١) في ج (به) بدل (إليه).

(٢) في ج (فيه).

(٣) في ب (يا بلال، أرحنا في الصلاة)، وفي ج (يا بلال، أرحنا أرحنا بالصلاة). الحديث رواه أحمد، (المسند ٦/ ٥٠١، ح ٢٢٥٧٨). ورواه أبو داود من طريقين، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، (٥/ ٢٦٢، ح ٤٩٨٦، وح ٤٩٨٥)، وصحح إسناده العراقي، (المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، والألباني، (تحقيق مشكاة المصابيح ١/ ٣٩٣، ح ١٢٥٣).

(٤) في ج (فأخبر) بدل (فأعلم بذلك).

(٥) في ج (فالغافل).

(٦) في ب (كثيرة).

(٧) في ج (عليه كبيرة شاقة) بدل (كبيرة شاقة عليه).

(٨) في ب (فيها).

(٩) في ب (وإلا فإن كل من قرت عينه بشيء واستراح به) بدل (والعبد إذا قرت عينه بشيء واستراح قلبه به).

(١٠) ذكر ابن القيم نحو هذا الكلام المتقدم، في (طريق الهجرتين، ص ٥٥٤).

(١١) في ب (الجامع).

(١٢) في ج (الباعث عليها محبة العبد لله) بدل (الحامل عليها والداعي إليها رغبة العبد في الله ومحبته له).

(١٣) في ج (الأقوال والأفعال) بدل (الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة).

(١٤) في ج (وهو) بدل (فهذا).

(١٥) من حديث ذكره الهيثمي عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا، وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه". مجمع الزوائد (٢/ ٣٩، ح ١٦٧٧). وذكره الهيثمي أيضًا عن عبادة بن الصامت - ضي الله عنه - مرفوعًا، وقال: "رواه الطبراني في الكبير، والبزار بنحوه، وفيه: الأحوص بن حكيم، وثقه ابن المديني والعجلي، وضعفه جماعة، وبقية رجاله موثَّقون". مجمع الزوائد (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥، ح ٢٧٣٤)، ونص حديث عبادة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "إذا توضأ العبد فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فأتمَّ ركوعها وسجودها والقراءة فيها، قالت: حفظك الله كما حفظتني، ثم أُصعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور، وفتحت لها أبواب السماء، وإذا لم يحسن العبد الوضوء، ولم يُتمَّ الركوع والسجود والقراءة، قالت: ضيعك الله كما ضيعتني، ثم أُصعد بها إلى السماء وعليها ظلمة، وغُلِّقت أبواب السماء، ثم تُلَفُّ كما يلف الثوب الخلق، ثم يُضرب بها وجه صاحبها".

(١٦) في ب (منها شيء).

(١٧) في ب، وج (مع) بدل (عند).

(١٨) في ج (لفلان) بدل (لمذهب فلان).

وَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّا لَا نُؤْمِنُ حَتَّى نُحَكِّمَ الرَّسُولَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَنَا، وَنَنْقَادَ لِحُكْمِهِ وَنُسَلِّمَ تَسْلِيمًا (١). فَلَا يَنْفَعُنَا تَحْكِيمُ غَيْرِهِ وَالِانْقِيَادُ لَهُ، وَلَا يُنْجِينَا مِنْ عَذَابِ اللهِ (٢)، وَلَا يُقْبَلُ مِنَّا هَذَا (٣) الْجَوَابُ إِذَا سَمِعْنَا نِدَاءَهُ -سُبْحَانَهُ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [الْقَصَصِ: ٦٥]، فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَسْأَلَنَا عَنْ ذَلِكَ، وَيُطَالِبَنَا بِالْجَوَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الْأَعْرَافِ: ٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ بِي تُفْتَنُونَ وَعَنِّي تُسْأَلُونَ (٤)"، يَعْنِي الْمَسْأَلَةَ فِي الْقَبْرِ، فَمَنِ انْتَهَتْ إِلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَرَكَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَسَيَرِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَعْلَمُ (٥).

[فَصْلٌ] الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ

وَهُوَ مَشْهَدُ الْمُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ. وَهَذَا الْمَشْهَدُ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَى اللهَ -سُبْحَانَهُ- فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، مُسْتَوِيًا (٨) عَلَى عَرْشِهِ، يَتَكَلَّمُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلِيقَةِ، فَيَنْزِلُ الْأَمْرُ مِنْ عِنْدِهِ وَيَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَتُعْرَضُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ وَأَرْوَاحُهُمْ عِنْدَ الْمُوَافَاةِ عَلَيْهِ. فَيَشْهَدُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَلْبِهِ، وَيَشْهَدُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَيَشْهَدُ

قَيُّومًا، حَيًّا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، آمِرًا، نَاهِيًا، يُحِبُّ [وَيُبْغِضُ، وَيَرْضَى] وَيَغْضَبُ، [وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ]، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَلَا أَقْوَالِهِمْ وَلَا بَوَاطِنِهِمْ، بَلْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

وَمَشْهَدُ الْإِحْسَانِ أَصْلُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ يُوجِبُ [الْحَيَاءَ]، وَالْإِجْلَالَ، وَالتَّعْظِيمَ، وَالْخَشْيَةَ، وَالْمَحَبَّةَ، وَالْإِنَابَةَ، وَالتَّوَكُّلَ، وَالْخُضُوعَ لِلهِ -سُبْحَانَهُ-، وَالذُّلَّ لَهُ؛ وَيَقْطَعُ (٩) الْوَسَاوِسَ وَحَدِيثَ النَّفْسِ، وَيَجْمَعُ الْقَلْبَ وَالْهَمَّ عَلَى اللهِ.

فَحَظُّ الْعَبْدِ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ حَظِّهِ مِنْ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، وَبِحَسَبِهِ تَتَفَاوَتُ الصَّلَاةُ، حَتَّى يَكُونَ بَيْنَ صَلَاةِ الرَّجُلَيْنِ مِنَ الْفَضْلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَقِيَامُهُمَا وَرُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ.

فَصْلٌ الْمَشْهَدُ الْخَامِسُ: [مَشْهَدُ الْمِنَّةِ]

[وَهُوَ] أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِلهِ -سُبْحَانَهُ-، كَوْنَهُ (١٠) أَقَامَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَأَهَّلَهُ [لَهُ]. وَوَفَّقَهُ لِقِيَامِ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ فِي خِدْمَتِهِ. فَلَوْلَا اللهُ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَكُنْ (١١) شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَحْدُونَ (١٢) بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُونَ:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا (١٣) قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الْحُجُرَاتِ: ١٧]، فَاللهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمُسْلِمَ مُسْلِمًا، وَالْمُصَلِّيَ مُصَلِّيًا، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٢٨]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤٠].

فَالْمِنَّةُ لِلهِ وَحْدَهُ فِي أَنْ جَعَلَ عَبْدَهُ قَائِمًا بِطَاعَتِهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النَّحْلِ: ٥٣] وَقَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الْحُجُرَاتِ: ٧].

وَهَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَشَاهِدِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْظَمَ تَوْحِيدًا كَانَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ أَتَمَّ.

وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْعُجْبِ بِالْعَمَلِ وَرُؤْيَتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْمَانُّ بِهِ، الْمُوَفِّقُ لَهُ،

الْهَادِي إِلَيْهِ، شَغَلَهُ شُهُودُ ذَلِكَ [عَنْ رُؤْيَتِهِ]، وَالْإِعْجَابِ بِهِ، وَأَنْ يَصُولَ (١٤) بِهِ عَلَى النَّاسِ، فَيُرْفَعُ مِنْ قَلْبِهِ؛ فَلَا يُعْجَبُ بِهِ، وَمِنْ لِسَانِهِ؛ فَلَا يَمُنُّ بِهِ وَلَا يَتَكَثَّرُ بِهِ، وَهَذَا شَأْنُ الْعَمَلِ الْمَرْفُوعِ.

(١) قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء: ٦٥].

(٢) في ج (الانقياد لغيره) بدل (تحكيم غيره) إلى (عذاب الله).

(٣) في ج (هنا) بدل (هذا).

(٤) روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها حديثًا طويلًا مرفوعًا، وفيه "فأما فتنة القبر فبي تُفتنون وعنِّي تُسألون" الحديث، (المسند ٧/ ٢٠١، ح ٢٤٥٦٦)، قال المنذري: "رواه أحمد بإسناد صحيح"، (الترغيب والترهيب ٤/ ٣٦٤ - ٣٦٥)، وحسنه الألباني (صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠، ح ١٣٦١). وروى البخاري معناه بسنده: ... فحمد اللهَ النبيُّ ﷺ وأثنى عليه ثم قال: "ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي، حتى الجنة والنار، فأُوحى إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل -أو قريبًا، لا أدري أي ذلك قالت أسماء- من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن - أو الموقن، لا أدري بأيهما قالت أسماء - فيقول: هو محمد، هو رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد ثلاثًا. فيقال: نم صالحًا، قد علمنا إن كنت موقنًا به. وأما المنافق -أو المرتاب، لا أدري أي ذلك قالت أسماء- فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته". صحيح البخاري، كتاب العلم، باب (٢٥) من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، (١/ ٣٤، ح ٨٦).

(٥) أي: يَعلم أنه كان في الدنيا على خطأ كبير، وذلك عندما يسأله ربه عز وجل يوم القيامة، عن إجابته الرسول ﷺ، وليس إجابته أحدًا من الناس

خالف السنة.

(٨) في ب، وج (مستو).

(٩) في ب (وتقطع).

(١٠) في ج (حيث) بدل (كونه).

(١١) في ب (ما كان).

(١٢) "الحَذْو: سَوْق الإبل والغناء لها". (لسان العرب ١٤/ ١٦٨). قال ابن حجر: "وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو في تلك الحال". (فتح الباري ٧/ ٥٣٢).

(١٣) وردت عند البخاري روايتان: أولاهما تفيد أن قائله: عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، والأخرى أنه: عامر بن الأكوع رضي الله عنه، (صحيح البخاري)، كتاب المغازي، باب ٣٠ - غزوة الخندق، ٥/ ٥٧، ح ٤١٠٦، وباب ٣٩ - غزوة خيبر ٥/ ٨٦، ح ٤١٩٦). ورواه مسلم لعامر، (صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب ٤٥ - غزوة ذي قرد وغيرها، ٣/ ص ١٤٢٧، ح ١٢٣، ص ١٤٢٣، ح ١٣٢). قال ابن حجر: "فيحتمل أن يكون هو وعامر تواردا على ما تواردا منه، ما وقع لكل منهما مما ليس عند الآخر، أو استعان عامر ببعض ما سبقه إليه ابن رواحة". فتح الباري (٧/ ٥٣١)، والذي أورده ابن القيم نص ابن رواحة رضي الله عنه.

(١٤) يصول: أي يسطو ويستطيل، "والصؤول من الرجال: الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم"، لسان العرب (١١/ ٣٨٧)، وانظر القاموس: المحيط، (ص ١٣٢٣).

وَمِنْ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ يُضِيفُ الْحَمْدَ (١) [إِلَى] وَلِيِّهِ وَمُسْتَحِقِّهِ، فَلَا يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ حَمْدًا بَلْ [يَشْهَدُهُ] كُلَّهُ لِلهِ، كَمَا يَشْهَدُ النِّعْمَةَ كُلَّهَا مِنْهُ، وَالْفَضْلَ كُلَّهُ لَهُ، وَالْخَيْرَ كُلَّهُ فِي [يَدَيْهِ]، وَهَذَا فِي تَمَامِ التَّوْحِيدِ فَلَا يَسْتَقِرُّ (٢) قَدَمُهُ فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِعِلْمِ ذَلِكَ وَشُهُودِهِ، فَإِذَا عَلِمَهُ وَرَسَخَ فِيهِ صَارَ لَهُ مَشْهَدًا، وَإِذَا صَارَ لِقَلْبِهِ مَشْهَدًا أَثْمَرَ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْأُنْسِ بِاللهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالتَّنْعِيمِ بِذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ مَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْلَى نَعِيمِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ.

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاتِهِ إِذَا كَانَ قَلْبُهُ عَنْ هَذَا مَصْدُودًا، وَطَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ عَنْهُ مَسْدُودًا، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾ [الحجر: ٣].

[فَصْلٌ]

الْمَشْهَدُ السَّادِسُ: مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ

وَأَنَّ (٤) الْعَبْدَ لَوِ اجْتَهَدَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ غَايَةَ (٥) الِاجْتِهَادِ وَبَذَلَ وُسْعَهُ فَهُوَ مُقَصِّرٌ، وَحَقُّ اللهِ -سُبْحَانَهُ- عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالَّذِي

يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابِلَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالْخِدْمَةِ فَوْقَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ -سُبْحَانَهُ- يَقْتَضِي مِنَ الْعُبُودِيَّةِ مَا يَلِيقُ بِهَا.

وَإِذَا كَانَ خَدَمُ الْمُلُوكِ وَعَبِيدُهُمْ يُعَامِلُونَهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ بِالْإِجْلَالِ لَهُمْ (٦)، وَالتَّعْظِيمِ، وَالِاحْتِرَامِ، وَالتَّوْقِيرِ، وَالْحَيَاءِ، وَالْمَهَابَةِ، وَالْخَشْيَةِ، وَالنُّصْحِ، بِحَيْثُ يُفَرِّغُونَ قُلُوبَهُمْ وَجَوَارِحَهُمْ لَهُمْ، فَمَالِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْلَى أَنْ يُعَامَلَ بِذَلِكَ، [بَلْ] بِأَضْعَافِ ذَلِكَ.

وَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ [يُوَفِّ] رَبَّهُ فِي عُبُودِيَّتِهِ حَقَّهُ، وَلَا قَرِيبًا مِنْ حَقِّهِ، عَلِمَ تَقْصِيرَهُ (٧)، وَلَمْ يَسَعْهُ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاعْتِذَارِ مِنْ تَقْصِيرِهِ وَتَفْرِيطِهِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِمَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ حَقِّهِ، وَأَنَّهُ إِلَى أَنْ يَغْفِرَ لَهُ الْعُبُودِيَّةَ وَيَعْفُوَ عَنْهُ فِيهَا أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ عَلَيْهَا (٨) ثَوَابًا، وَهُوَ لَوْ وَفَّاهَا حَقَّهَا كَمَا يَنِيغِي لَكَانَتْ مُسْتَحَقَّةً عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّ عَمَلَ الْعَبْدِ وَخِدْمَتَهُ لِسَيِّدِهِ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَوْنِهِ عَبْدَهُ وَمَمْلُوكَهُ، [فَلَوْ] طَلَبَ مِنْهُ الْأُجْرَةَ عَلَى عَمَلِهِ وَخِدْمَتِهِ لَعَدَّهُ النَّاسُ أَحْمَقَ وَأَخْرَقَ (٩)، هَذَا وَلَيْسَ هُوَ عَبْدَهُ وَلَا مَمْلُوكَهُ عَلَى

الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ (١٠) عَبْدُ اللهِ، وَمَمْلُوكُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَعَمَلُهُ وَخِدْمَتُهُ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَوْنِهِ عَبْدَهُ، فَإِذَا [أَثَابَهُ عَلَيْهِ] كَانَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ فَضْلٍ وَمِنَّةٍ وَإِحْسَانٍ إِلَيْهِ لَا يَسْتَحِقُّهُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَهُنَا [يُفْهَمُ] مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ [الْجَنَّةَ] بِعَمَلِهِ". قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ (١١)".

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "يُخْرَجُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِينَ: دِيوَانٌ فِيهِ حَسَنَاتُهُ، وَدِيوَانٌ فِيهِ سَيِّئَاتُهُ، وَدِيوَانُ (١٢) النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا. فَيَقُولُ الرَّبُّ (١٣) -تَعَالَى- لِنِعَمِهِ: خُذِي حَقَّكِ مِنْ حَسَنَاتِ عَبْدِي. فَيَقُومُ أَصْغَرُهَا فَتَسْتَنْفِدُ حَسَنَاتِهِ، ثُمَّ تَقُولُ: وَعِزَّتِكَ مَا اسْتَوْفَيْتُ حَقِّي بَعْدُ. فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَ عَبْدَهُ وَهَبَهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِ، وَغَفَرَ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، وَضَاعَفَ لَهُ حَسَنَاتِهِ". [وَهَذَا ثَابِتٌ] عَنْ أَنَسٍ (١٤). وَهُوَ أَدَلُّ شَيْءٍ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِرَبِّهِمْ وَحُقُوقِهِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِنَبِيِّهِمْ [وَسُنَّتِهِ] وَدِينِهِ، فَإِنَّ فِي هَذَا الْأَثَرِ (١٥) مِنَ

الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ الْعَارِفُونَ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَحَقِّهِ. وَمِنْ هُنَا (١٦) يُفْهَمُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي (١٧) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٨)، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ (١٩) (٢٠)، مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَحُذَيْفَةَ وَغَيْرِهِمَا (٢١): "إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ".

فَصْلٌ

وَمِلَاكُ هَذَا الشَّأْنِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ:

نِيَّةٌ صَحِيحَةٌ، وَقُوَّةٌ غَالِبَةٌ (٢٢)، يُقَارِنُهُمَا: رَغْبَةٌ، وَرَهْبَةٌ.

(١) في ب، وج زيادة (كله).

(٢) في ج (تستقر).

(٤) في ج (لأن).

(٥) في ج (كل) بدل (غاية).

(٦) في ج (بالإخلاص) بدل (بالإجلال لهم).

(٧) (وإذا شهد) إلى (علم تقصيره و) ورد في ج كالتالي: (فإذا علم العبد ذلك).

(٨) في ج (أحوج من يطلب عليها) بدل (أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها).

(٩) (فإن عمل العبد) إلى (وأخرق) ورد في ج كالتالي: (فإن العبد لو يطلب من سيده الأجرة عده الناس أحمق).

(١٠) في ج (بل هو) بدل (وهو).

(١١) متفق عليه، بألفاظ مقاربة لما ذكره المؤلف، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب (١٨) القصد والمداومة على العمل (٧/ ٢٣٢ - ٢٣٣، ح ٦٤٦٣)، وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب (١٧) لن يدخل أحد الجنة بعمله، (٤/ ٢١٦٩، ح ٧١ - ٧٨).

(١٢) في ج زيادة (فيه).

(١٣) في ج (الله).

(١٤) رواية المؤلف موقوفة على أنس رضي الله عنه ولم أجدها. ورواه البزار بنحوه عن أنس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، (كشف الأستار عن زوائد البزار، للهيثمي ٤/ ١٦٠، ح ٣٤٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٤٨) "فيه صالح المري وهو ضعيف"، وقال محقق المجمع: "وفيه أيضًا داود بن المحبر، متهم بوضع الحديث" (١٠/ ٦٤٧).

(١٥) في ب، وج (الأمر) بدل (الأثر).

(١٦) في ب (ههنا).

(١٧) في ج (فيما) بدل (في الحديث الذي).

(١٨) سنن أبي داود، كتاب السنَّة، باب في القدر، (٥/ ٧٥، ح ٤٦٩٩) عن أُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، جميعهم موقوفًا، وعن زيد بن ثابت مرفوعًا.

(١٩) المسند، (٦/ ٢٣٣، ح ٢١٠٧٩) مثل رواية أبي داود؛ ورواه الإمام أحمد بسند آخر عن زيد بن ثابت مرفوعًا (٦/ ٢٣٧، ح ٢١١٠١). ورواه ابن ماجه، المقدمة، باب في القدر، (١/ ٢٩ - ٣٠، ح ٧٧). وأول الحديث عندهم جميعًا: "لو أن الله عذب ... ". والحديث صححه الألباني، (انظر تخريجه لأحاديث الطحاوية ص ٥٠٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده قوي"، (صحيح ابن حبان: (التخريج) ٢/ ٥٠٦ حاشية رقم ١).

(٢٠) في ج (وغيره) بدل (والإمام أحمد).

(٢١) في ج (وغيره) بدل (وحذيفة وغيرهما).

(٢٢) في ب (عالية).

فَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ قَوَاعِدُ [هَذَا] الشَّأْنِ. وَمَهْمَا دَخَلَ عَلَى (١) الْعَبْدِ مِنَ النَّقْصِ (٢) فِي إِيمَانِهِ وَأَحْوَالِهِ وَظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ فَهُوَ مِنْ نُقْصَانِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَوْ نُقْصَانِ بَعْضِهَا.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ الْأَشْيَاءَ، وَلْيَجْعَلْهَا سَيْرَهُ وَسُلُوكَهُ، وَيَبْنِي عَلَيْهَا عُلُومَهُ وَأَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ وَأَحْوَالَهُ، فَمَا نَتَجَ مَنْ نَتَجَ إِلَّا مِنْهَا، وَلَا تَخَلَّفَ مَنْ تَخَلَّفَ إِلَّا مِنْ فَقْدِهَا.

[وَاللهُ أَعْلَمُ (٣)]، وَاللهُ (٤) الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَإِلَيْهِ الرَّغْبَةُ، وَهُوَ الْمَسْؤُولُ بِأَنْ يُوَفِّقَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ لِتَحْقِيقِهَا عِلْمًا [وَعَمَلًا (٥)]، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْمَانُّ بِهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

---

(١) في ب (وكل ما جاء) بدل (ومهما دخل على).

(٢) في ج (ومتى دخل النقص على العبد) بدل (ومهما دخل على العبد من النقص).

(٣) ما بين المعكوفين من ب، وج.

(٤) في ج (وهو).

(٥) ما بين المعكوفين من ب.